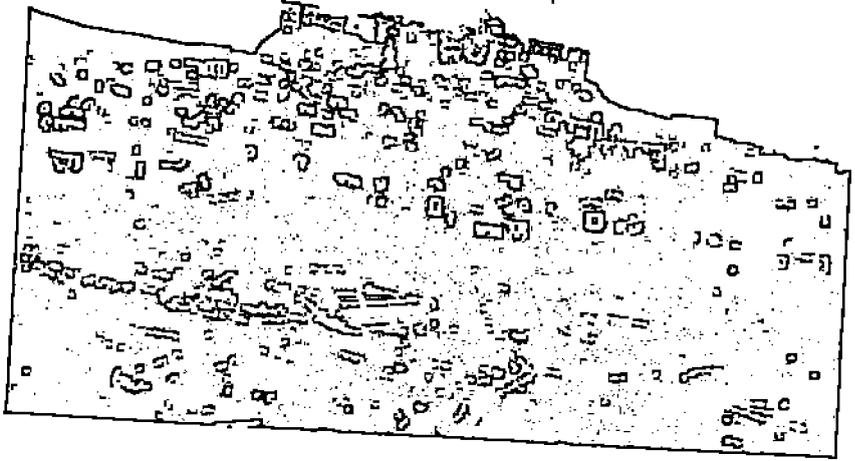


استعمال الالفة السريانية في الطقوس البيزنطية
في صيدنايا

قد بذكر قرأونا تلك المناظرات الشديدة التي قامت ، ثلاثين سنة خلت ، حول استعمال الروم ، من ارثوذكس ، وكاثوليك ، للغة السريانية في طقوسهم البيزنطية ، وما أدت اليه من جدال عنيف ومكابرة بيّدة عن روح العلم المتجرد . وقد اطلعنا مؤخرًا في مجلة « المرأة » (كانون الاول ١٩٣٢ ، ص ٥٩١-٦٠٢) على بحث دقيق بالذوران اعلاه مقتطف من كتاب نفيس وضعه المؤرخ المدقق السيد حبيب زيات بعنوان « خفايا الزوايا من تاريخ صيدنايا . » جال الكاتب في موضوعات عديدة تدور كلها حول ذلك الدير الشهير ، ومنها البحث الذي يصحنا اليوم . فابان اهمية هذا الموضوع في مرفة لغة الملكيين العنقية في كل الديار الشرقية قبل القرن الثامن عشر . و اشار الى الصوربات التي تتعرض اليها الباحث في ذلك ، والى المناظرات العديدة الآخذة بعضها بل اكثرها ، مأخذ الهوى والميل والتعصب . ثم قال : «ومنها يكن من دعوى الغربية فلا مشاحة ان اهل القري والجيل كانوا اكثر ما يتكلمون بالسريانية او يسألون بها الى حين تلمحوا العريفة فجمعوا بين اللتين . وبقيت منهم بقية الى اواخر القرن الثامن عشر . » و اشار الى المخطوطات الملكية السريانية المحفوظة في رومسة وباريس والشام ولبنان وكلها تدلّ على ذلك . ثم خصّ بكلامه دير صيدنايا فقال (ص ٥٩٤) :

ولا ريب انه لو كانت سلمت لنا مخطوطات دير السيدة ورتوقها ولم تتلفها يد القباوة والجهل لامكننا ان نقف فيها على اسماء كثيرين من نساخ صيدنايا في السريانية وبينهم بعض رهبان الدير ورؤسائه واحباره . ومن طالع كتاباتهم وتعليقاتهم التي ترى اليوم على عدة مصاحف سريانية مصونة في الحزائن الاوردية وكانت موقوفة على كنائس صيدنايا او مستعملة فيها يتحقق لاول وهلة ان كلاً من الاساقفة الذين تابخوا على صيدنايا حتى اوائل القرن الثامن عشر كان يعرف الارامية وبكبتها ويصلي بها الطقوس البيزنطية . وسيأتي



صيدانيا - منظرها من الجهة الجنوبية الشرقية
(تصوير الاب دي مارتيجري)



صيدانيا - منظرها من الجهة الغربية
(تصوير الاب دي مارتيجري)



صيدنايا - كنية الدير
(تصوير الاب دي مارتيميري)



صيدنايا - احدى راهبات الدير

في الفصل المذكور لهم تعداد كل هذه الكتابات والتعليقات التي لكل منهم في كتب الصلوات السريانية. نُجمل منهم هنا ذكر بطرس (سنة ١٢٦٤) واتناسيوس (١٤٣١) وسرقص (١٤٤٦-١١٥١) وسيلون (١٥٦٥-١٥٨٠) واتقاس (١٥٩١-١٦٠٤) وسيلون (١٦٠٤-١٦٣٤) ويواصف (١٦٤٥-١٦٤٨). ولهذا الأخير في خزانة المرحوم المطران يوسف داود السرياني بدمشق كتاب التندقا بخط يده نسخ فيه الصلوات باللغتين السريانية والعربية بتاريخ ١٦٤٦ ولسيلون سلفه في خزانة القاتيكان بضع صفحات اتقها كانت ناقصة من ميانون شهري نيسان وايار في السريانية الى غير ذلك مما سيمر بنا او يظهره لنا غداً رواد البحث والتنقيب.

ولاشكّ عندنا ان كل الاساقفة الذين خلفوا يواصف بعد سنة ١٦٤٨ الى سنة ١٧٢٢ كانوا يعرفون السريانية او على الاقل كانوا يتكلمون بها. وما يوزيد ذلك ما حكاه السعاني عن آخرم جراسيموس الدمشقي (١٧١١-١٧٢٢) بعد زيارته الدير في شهر تشرين الاول سنة ١٧١٥ قال: «الاسقف والرهبان يختلفون الان بالقداس الالهي والصلوات للراهبات في كنيسة السيدة حسب الطقس الرومي باللغة العربية. ولكن قبلاً كانت هذه الصلوات تقام باللغة السريانية. وهذا الاسقف يدعى جراسيموس وهو رجل بسيط مستقيم يتكلم ليس باللان العربي فقط ولكن بالسرياني ايضاً». ثم ذكر حسن استقبال الراهبة الرئيسة والرهبان له. قال: «واعطوني بعض المخطوطات السريانية ومضمونها في طقسيات الكنيسة الرومية. وكانت مطروحة في احدى زوايا الهيكل طعبة للصراجر والعش»^١ واجلّ الشواهد على مكانة اللغة الارامية في سيدنايا هذه العقود والصكوك العربية المتعلقة بارقاف الدير التي كان يُرى في ذيلها احياناً توقيعات الاساقفة بخطوط ايديهم بالسريانية. وقد حفظت منها بعض نسخ في دفتين اطلعنا عليها الرئيسة الحاجبة مريم صباغ يوم زيارتنا الدير في ٢٩-٣٠ ايلول سنة ١٩٣٠ وكان في النية تصوير هذه التوقيعات لشرها هنا مع غيرها من الصفحات

والكتابات والفرائد التي ترى في بعض مخطوطات الدير إنما له شأن في التعريف بتاريخه وتاريخ الكريسي الانطاكي . ولكن ابى ذكاه . بعض الوكلاء ان تنتقل شيئاً بدعوى انه قد مضى على الدير نيف والى سنة وليس له تاريخ مكتوب دون ان يسقط ذلك من قدره . قال : ولا ارى ما يستفيد الدير من مثل هذه المنشورات التي لا تزيد شيئاً في ريمه (كذا) .

وهذه التوقيعات السريانية القيمة بعضها لاسقف صيدنايا اتياس بتاريخ ١٠١١ للهجرة (١٦٠٢ م) ; وبعضها الآخر لحلفه سيارون بتاريخ ٧١١٢ لآدم (١٦٠٦ م) و١٠٣٠ و١٠٤١ للهجرة (١٦٢٠ و١٦٦٣ م) فمضى ان لا تُتلف سرورها كما أتلفت قبلاً كل الذخائر السريانية التي كان الدير غنياً بها في اوائل القرن الماضي . وحبذا لو نشر مضمون هذين الدفتين بالحرف الواحد لما يمكن تعالقه عنها من الاخبار والآثار والفرائد عن صيدنايا واهلها وواقفها واسما . بعض البيوت والاملاك والحدود في ما جاورها من القرى والبلاد . . .

ثم ذكر ما يدل أيضاً على سريانية صيدنايا من الآثار المحفوظة في الملابس الكنزية مكتوبة باللغة السريانية :

وقد عُرفت سريانية اهل صيدنايا قديماً وثبتت اختصاصهم بها لدى زوار الدير عموماً ممن مروا بهم او خالطوهم وسموا كلامهم وصاواتهم بها . واشهر من نبه عليها من الغرباء . انبا ميخايل القبطي مطران دمياط في القرن الثاني عشر فقد نقل عنه الشيخ الموقن ابو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود فصلاً قال فيه :

« وجدت بخط انبا ميخايل مطران دمياط في الثاني والعشرين من برمودة سنة تسماية كثنائية (١٧ نيسان ١١٨٤ م) يتضمن ان شرقي دمشق على مسيرة نصف وربع خار ثم بلدة يقال لها صيدنايا . تبعا صير الى قرية الجبل تسمى كنيسته عالية البناء . حنة جدّاً يسد قوم « ملكية ولناهم سرياني » . والكنيسة المذكورة على اسم السيدة المذرى الطاهرة . » (١)

(١) كتاب الكنائس والديارات نسخة خطية وحيدة محفوظة عند الاستاذ جرجس فيلوثاوس عوض بطناً تلتف باطلاعي عليها . ومنها تلت حرقياً ما تقدم اعلاه وما سيجي . . .

وهذه الشهادة نص واضح صريح على سريانية صيدنايا لا يدع اقل مجال
للاويل او الجدل فحسب: به صحة اطعمة اقول كل خطيب.
وقد كان الدير حتى اوائل القرن التاسع عشر حافظاً بالمخطوطات والاوراق
السريانية وبينها كل قديم ونفيس ومعظمها من الكتب السدينية التي كانت
موقوفة على الكنائس والاديار . بلغت كثرتها فيه مبلغاً ضاق به ذرع الوكلاء.
حين ارادوا ان ينفروا عن الدير نسبة السريانية فلم يروا لآبادتها والتخلص منها
واسطة اعجل من ايقاد النار بها في خلال اسبوعين . وغني عن البيان ان مثل
هذه المصاحف العديدة التي توارثها الدير منذ القدم وحبسها عليه كل الرهبان
والزوار حبساً مؤبداً واوجبروا اللمن على كل من اخرجها منه او تصرف بشيء
منها لم تجتمع فيه عبثاً ولم تحزن لمجرد الهوى والمقالة . وانما اوجدتها فيه حاجة
الاستعمال وضرورة الصلاة واتقاهم فهي شهود على لغة كتابها رقراتها تنادي
بعد زوالهم بلسان حالهم .

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بمدنا الى الآثار

ويتاج الموزع المدقق سرد الشهادات على سريانية صيدنايا من اقوال الرحالة الافرنج
كنيهر (١٧٦٣) وثولني (١٧٨٥) وبرزن (١٧٩٧) وكلها تزيد ما اراد ان يبرهن عنه .
ثم يختم الفصل قائلاً :

ومن تدبر ما تقدم بعين النزاهة والاخلاص لا يسعه الا ان ينقاد لما اوردناه
من البيئات والآثار التاريخية ويأسف كل الاسف ان جهلها قبل اليوم كان هو
الباعث الاكبر على اتلاف ما اُتلف من المخطوطات والاوراق والرقوق السريانية
التي كانت محفوظة في الدير وكان احراقها عمداً وتواطؤاً نكبة من نكبات
الشرق لا ينقضي تذكارها وحرقة في صدر العلم لا يخبر أوارها .

